

مظاهر العبودية في مناسك الحج

فلذلك نقول: إن علينا أن نشكر الله تعالى؛ حيث يسر لنا السبل، وحيث هيا لنا الأسباب؛ حتى لم يبق ما يعوق الحاج أو المعتمر عن أداء مناسكه، نعرف عباد الله أن هذه المناسك، وتلك المشاعر المفضلة أنها عبادات لرب العالمين، يتقرب العباد فيها إلى ربهم بما يكون سببا ووسيلة لمغفرة الذنوب، ولرفع الدرجات، ولتكفير الخطايا، ولمحو السيئات؛ فيتقربون إلى ربهم بالإحرام الذي يتخلون فيه عن عاداتهم ومشتهياتهم؛ فيلبسون ثيابا أشبه بتياب الموتى؛ إزار ورداء، يكشفون رؤوسهم؛ ليكونوا حاسريها لا شك أن ذلك يذكرهم الجنة والقبور؛ حيث إنهم خلعوا ما كانوا يرتدوه من الأكسية والألبسة، وتحلوا بهذه الحلية، ولبسوا هذا اللباس الخاص؛ ليتذكروا أولا: أنهم راحلون من الدنيا، وأنهم يرحلون، ويكفنون في مثل هذا اللباس الخاص في ثوبين أو نحوها، لا شك أن هذه موعظة كبيرة. كذلك أيضا إذا راوا أنهم كلهم قد توحدت صفتهم، وقد صاروا كلهم على هيئة واحدة، لا فرق بين كبير وصغير، ولا فرق بين أمير وأمور، ولا فرق بين غني وفقير كلهم على صفة واحدة، وعلى هيئة واحدة لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى؛ الأمير والمأمور، الأسود والأحمر والأبيض كلهم على حالة واحدة يتذكرون جميعا أنه لا فرق بينهم، ولا فضل لأحد على أحد، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- { لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى }؛ فيتقون الله، ويحذرون من ترك التقوى ومن ترك الطاعة، ويعلمون أنهم يتفاوتون بالتقوى عند الله؛ ولأجل ذلك ذكرهم الله بالزاد الحقيقي في قوله تعالى: { وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } هذه تقوى الله تعالى التي تكون بالقلوب؛ يكون ذلك من أسباب رفعتهم، ومن أسباب إقبالهم. من لبس الجديد ولا من قاد الخيل المسومة وخدمته العبيد، وإنما السعادة إنما هي في الدار الآخرة لمن فاز برضا ربه ولمن قبل الله سعيه، ولمن أطاع الله تعالى واتبع رضاه هذا هو حقيقة تقوى الله تعالى، فيتنافسون فيها يحققون قول الله تعالى: { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } ويتسابقون على الخيرات يحققون أيضا قول الله تعالى: { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } . كذلك أيضا يتقربون إلى الله تعالى بالتلبية تلبية إلا لله على لسان خليله إبراهيم -عليه السلام- حيث أمره بذلك في قوله: { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ لَنْ لَا نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا وَطَهَّرْنَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذَّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوبُكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } وعلى أن أمره الله فنأدى: "أيها الناس، إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا، فأسمع الله هذا النداء من كان في الأضلاب، ومن كان في الأرحام سماع قبول؛" فلذلك تراهم يأتون من كل فج عميق، من كل حذب ينسلون، مجيئين نداء الله يقولون: لبيك لبيك أي نحن مجيئون لندائك إجابة بعد إجابة، ملازمين لطاعتك، يكررون التلبية بكل حالاتهم وعند تغير تنقلاتهم، وكأنهم يقولون: نحن مقيمون على طاعتك إقامة بعد إقامة. يكررون هذه التلبية التي فيها إخلاص الدين لله، قائلين: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك؛ أي ليس لك شريك في الملك، وليس لك شريك في العبادة، وليس لك شريك في استحقاقك للطاعة؛ بل أنت يا ربنا، أنت المطاع، وأنت المعبود وحدك، ونحن نعبدك ولا نعبد إلا غيرك، هكذا يرفعون أصواتهم بهذا وكأنهم يعاهدون الله على أن لا يخرجوا عن طاعته، يعاهدون ربهم بهذه التلبية، أن يقيموا على طاعة الله ببقية أعمارهم، وأن لا يشركوا به شيئا، وأن لا يتركوا عبادته، وأن يستمروا عليها ممثلين لقول الله تعالى: { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } . وهكذا أيضا يتقربون إلى ربهم بترك ما كانوا اعتادوه من الشهوات والملذات ونحوها، فيتجنبون الطيب الذي تميل إليه النفوس، ويتجنبون النكاح والمباشرة والوطء مقدماته، ويتجنبون أيضا قتل الصيد، وإن كانت نفوسهم تميل إليه، ويتجنبون أخذ الشعر وأخذ الأظفار وذلك من الترفه، كل ذلك تركوه طواعية لله تعالى، وامتناعا لأمره، هذه الشهوات التي كانت معتادة تركوها امتناعا لأمر الله؛ فكانوا بذلك مستحقين -إذا قبل الله تعالى منهم- مستحقين للثواب بفضل الله سبحانه، إذا تقبل الله أعمالهم لا شك أن هذا من أفضل القربات وأفضل الأعمال. كذلك أيضا يتقربون إلى الله بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة وبالوقوف بعرفة وبالمبيت بمزدلفة وبالمبيت بمنى في أيام منى وبرمي الجمار، وبالحلق أو التقصير وبذبح الهدايا التي جعلها الله تعالى قربة وسخرها لهم، وامتن عليهم بما سخر لهم من هذه البهائم، لا شك أن ذلك كله من الطاعات والأعمال الصالحة التي يحبها الله تعالى؛ فهم إذا طافوا بالبيت يتذكرون أنهم يعبدون ربهم سبحانه وتعالى. ويتذكرون أيضا أنهم بحاجة إلى الله؛ فلأجل ذلك يكونون في الطواف مشتغليين بذكر الله، يذكرونه ويشكرونه ويعبدونه ويحمدونه ويرجونه ويتلون كتاب ربهم، وكذلك يكونون في هذه العبادة كلها خاشعين خاضعين متواضعين منزهين لا يتكبرون ولا يأنفون عن عبادة ربهم؛ إذ أنهم يستحضرون قول الله تعالى: { وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَبِّحْهُمْ إِلَهِي جَمِيعًا } يشعرون ويستحضرون بأنهم عبيد لله تعالى، وأن الله تعالى هو مالكهم، والعابد لا يتكبر على معبوده ولا يتجبر؛ بل يتدلل لله ربه الذي هو مالك رزقه، والذي هو المتصرف فيه وحده، لا شك أن ذلك كله دليل كمال الربوبية، دليل قبول الأعمال؛ فإن الله تعالى يقول: { أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي }؛ يعني المتواضعين. فالحجاج في هذه المشاعر يكونون منكسرة قلوبهم محبتين مسلمين متواضعين لربهم، سيما إذا وقفوا بعرفات؛ فإنهم يقفون في ذلك اليوم شعنا غربا ضاحين كاشفي رؤوسهم، قد اغبرت شعورهم من الهواء والغبار، فصاروا شعنا غربا، وكذلك أيضا ضاحين أي ظاهرين في الشمس لا يستظلون؛ حتى يكون ذلك أقرب إلى تذللهم وإلى خضوعهم، وهكذا في بقية الأعمال؛ ولأجل ذلك ورد أن الله تعالى يباهي بهم الملائكة وأنه يقول: { انظروا إلى عبادي أتوني شعنا غربا ضاحين من كل فج عميق، يرجون رحمتي، ويخافون عذابي أشهدكم أنني قد غفرت لهم، ووهبت مسيئتهم لمحسنتهم، انصرفوا مغفورا لكم } . فهكذا يكون العباد وهكذا يؤدون هذه العبادات، وعليهم أن يتجنبوا ما أمر الله تعالى بتجنبه؛ ولذلك قال الله تعالى: { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَعَلَّوْا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ } { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } أخبر سبحانه وتعالى بأن من فرض فيه الحج يتجنب الرفث والفسوق والجidal؛ { فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ }؛ أي لا جدال في الحج؛ { وَمَا تَعَلَّوْا مِنْ خَيْرٍ }؛ أي ما تقدمون من الخير فإن الله تعالى يوفيكم إياه، ويزيدكم من فضله: { وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } . هكذا أمر عباده بأن يتقوه، وبأن تكون تقواه حاملة لهم علي أن ... ما أمر الله، وعلي ترك ما نهى الله عنه، وعلى تعظيم حرمان الله؛ ولأجل ذلك قال تعالى: { لِيَتَشَهُدُوا مَتَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } . بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بالآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه فإنه هو الغفور الرحيم.